الجانب الصوفي

في الفلسفة الاسلامية[1]

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

نجتمع الليلة — أيها السادة — لتناجي القلب ونحادث الروح . ومناجاة القلب طهرة لمن شاء أن يتطهر ، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس . ومحادثة الروح عروج إلى سماء النور والملائكة ، وصعود إلى عالم الفيض والالهام . نجتمع الليلة لنهجر الأجسام زمناً ونفرغ إلى نفوسنا حيناً . والجسم والنفس كانا ولا يزالان في صراع دائم ومعركة مستمرة ، يقدر فيها لأحدهما الفوز تارة وللآخر أخرى . وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن فيض وإلهام وروح ونفس في عصرنا الحاضر الذي طغت فيه المادة على كل شيء ، فأصبحنا لا نؤمن إلا بكل مشاهد ، ولا نسلم إلا بكل مرئي . بيد أنا حتى في هذا العصر المادي نشعر بحاجة ماسة إلى كشف ما غاب عن أبصارنا وانطوت عليه نفوسنا ، ونركن كثيراً إلى ما تمليه ضمائرنا . وما دام فينا قلب يخفق وعاطفة تتأجج ، فانا لا نستطيع انكار لغة القلوب والأرواح ؛ وإذا تتبعنا المذاهب الفلسفية على اختلافها وجدنا أنه لم يخل واحد منها من نزعة صوفية . وها هوذا أرسطو الذي كان واقعياً في بحثه وطريقته ، ورجل مشاهدة وتجربة في ملاحظاته واستنباطاته ، قد انتهى به الأمر إلى أن بنى دراسته النفسية على شيء من الفيض والالهام ، ووضع في قمة الأخلاق فضائله العقلية التي هي أسمى درجة من درجات التأمل والمشاهدة الصوفية

حقاً إن الادراكات الروحية والالهامات القلبية قد تكون غير يقينية ، أو قد يعز على الأقل اثباتها ببراهين قطعية يتقبلها الآخرون ؛ إلا أنها مبعث طمأنينة وهدوء وسكون ؛ ذلك لأنها معرفة شخصية مباشرة ؛ والكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلب . وكم يجهد الانسان نفسه في صوغ الأقيسة واقامة البراهين لاثبات أمر ما دون أن ينعم بالهدوء والسكون اللذين يحس بهما حين يناجيه قلبه وتخاطبه روحه . وقديماً مر الغزالي بمراحل من البحث والنظر ، واشتغل بدراسات كثيرة ، ولكن لم تطب نفسه إلا للمعرفة الصوفية تفيض عليه فيضاً ويُلهَمها إلهاماً . وحديثاً شك ديكارت في كل شيء ، اللهم إلا في نفسه وتفكيره . ولما انتهى إلى هذه الحقيقة الثابتة كانت أساس اليقين في رأيه ونقطة البدء لكل فلسفته . وهناك فلسفات قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله ؛ فأفلوطين في مدرسة الاسكندرية يرى أن الجذب والفيض هما السعادة التي ليست وراءها سعادة ؛ وقد جد شخصياً في تحقيقهما طول حياته ، ولم يحظ بهما إلا بضع مرات . ومالبرنش في القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربه . فمعرفتنا ليست إلا فيضاً من الله ، وما يبدو منا من عمل خارجي ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله ، وبهذا يتلاشى المخلوق في الخالق ، ويندمج الأثر في المؤثر

لسنا نحاول هنا التحدث عن التصوف في جملته ، ولا التعرض لمختلف مظاهره وأدواره منذ نشأته ، وإنما نريد فقط أن نفصل القول في نزعة صوفية سادت الفلسفة الاسلامية ؛ فنتبين كيف تكونت وشبت ونشأت ، ونشرح الأصول التي صدرت عنها ، والعوامل التي أثرت فيها ، ونحدد مدلولها ومرماها . وإذا ما تم لنا هذا استطعنا أن نوضح آثارها ونتائجها . فحديث القلب والروح الذي نحن بصدده مقصور على ما جاء به الفلاسفة المسلمون ، ووقف على الجانب الصوفي في الفلسفة الاسلامية . وما كان أجدرنا في بحث كهذا أن نستعمل لغة خاصة وأسلوباً خاصاً ، بل وأن نلجأ إلى مكان خاص ، فان لغة العقل تعجز أحياناً عن التعبير في دقة عما يكنه القلب ، وأسلوبنا المشوب بشوائب مادية قد لا يجد السبيل إلى وصف الالهامات النفسية ، والأرواح التي تسبح في عالم النور تعز مناجاتها في حيز المادة والجسم المحدود . وعل الصوفية مصيبون في التزيي بزي خاص ، كي يتفق ظاهرهم مع باطنهم ، وفي اتخاذ لغة معينة تفصلهم عمن سواهم ؛ غير أن هذه اللغة زادت آراءهم تعقيداً ،

(١) محاضرتان ألقيتا في الجمعية الجغرافية مساء يومي الأربعاء ١٨ و ٢٥ مارس سنة ١٩٣٦

وكست نظرياتهم بثوب كثيف من الغموض والابهام . وسنجتهد فى أن نجلى غامضها ، وأن نقربها ما استطعنا من العرف المألوف

عنى الباحثون من قديم بدراسة التصوف الاسلامى فى جملته مدفوعين غالباً بما فى الموضوع من طرافة ، ومحاولين أن يكشفوا ما احتواه الاسلام والشرق من حقائق وأسرار . ويغلب على الظن أن الأبحاث الصوفيــة أول موضوع استلفت أنظار المستشرقين ؛ ولا تزال هذه الأبحاث محل عنايتهم حتى اليوم ؛ ومؤلفاتهم فيها تزيد كثيراً على ما كتبوه فى الدراسات الاسلامية الأخرى . ولا غرابة فالغرب متعطش دائماً إلى تعرف صوفية الشرق . وكأن هذا الأخير وهو مصدر النور والضوء أبى إلا أن يكون فى الوقت نفسه مقر القوى الخفية والأسرار الغامضة . ودون أن نعرض لكل من اشتغلوا بموضوع التصوف من كبار المستشرقين نكتفى بأن نشير إلى رجال القرن العشرين ، ونخص بالذكر منهم جولد زيهير المجرى الذى عقد للتصوف فصلاً ممتعاً فى كتابه « عقيدة الاسلام وقانونه[1] » بجانب أبحاث أخرى قيمة ؛ والأستاذ مكدونلد الأمريكى الذى وضح كثيرا من آراء الغزالى الصوفية ، والأستاذ نكلسون المدرس بجامعة كمبردج ، والاستاذ ماسنيون المدرس بكليج دى فرنس ، والدكتور محمد اقبال العالم الهندى المشهور ؛ وعلى رأس هؤلاء جميعاً يجب أن نضع نكلسون وماسنيون ، فانه يرجع إلى الأول الفضل فى نشر كثير من مخلفات الصوفية القيمة والتعليق عنها ؛ أما أستاذنا ماسنيون فقد رسم فى التصوف طرائق جديدة ، وقدم لنا عن الحلاج صورة غنية بالألوان والمعانى الدقيقة فى كتاب يعد أوسع مؤلف فى تاريخ التصوف الاسلامى[2]

غير أن آراء فلاسفة الاسلام الصوفية لم تدرس بعد ولم توجه إليها العناية التى تستحقها . حقاً إن مهرن المستشرق الدنمركى ، تنبه إلى بعض مؤلفات ابن سينا الصوفية ، وقام بنشرها وترجمتها[1] . كما أن البارون كارادى فو لمح لدى الفارابى نزعة صوفية واضحة[2] . إلا أن هذه الابحاث ناقصة وغير ناضجة . وعلى هذا لا زلنا نجهل أفكار فلاسفة الاسلام الصوفية كما نجهل نظرياتهم الفلسفية بالمعنى الدقيق . وكل ما نرجوه أن نكشف الغطاء عن هذه الناحية وأن نوجه الأنظار إليها

إذا شئنا أن نعرف أقدم صورة للأفكار الصوفية عند فلاسفة الاسلام ، وجب علينا أن نصعد الى أبى نصر الفارابى . فانه أول من صاغ الفلسفة الاسلامية فى ثوبها الكامل ووضع أصولها ومبادئها . نحن لا ننكر أن الكندى تنبه قبله إلى دراسة أفلاطون وأرسطو وعرض لبعض نظرياتهما بالشرح والاختصار ؛ ولكنا لا نجد لديه مذهباً فلسفياً كاملاً بكل معانى الكلمة ، بل هى نظرات متفرقة ومتعلقة بمواضيع مختلفة لا رابطة بينها[3] . أما الفارابى فقد لم هــذا الشعث وأقام دعائم مذهب فلسفى متصل الحلقات . ومن أهم أجزاء هذا المذهب وعلى قمة هذا البناء نرى نظرية صوفية امتازت بها الفلسفة الاسلامية من كثير من الفلسفات الأخرى . فالتصوف إذن قطعة من مذهب الفارابى الفلسفى لا ظاهرة عرضية كما يزعم كارادى فو . ولا أدل على هذا من أن هناك رباطاً وثيقاً يربطه بالنظريات الفارابية الأخرى نفسية كانت أو أخلاقية أو سياسية . وقد أثر هذا التصوف تأثيراً عميقاً فيمن جاء بعد من فلاسفة الاسلام

لعل أخص خصائص النظرية الصوفية التى قال بها الفارابى أنها قائمة على أساس عقلى . فليس تصوفه بالتصوف الروحى البحت الذى يقوم على محاربة الجسم والبعد عن اللذائذ لتطهر النفس وترقى مدارج الكمال ، بل هو تصوف نظرى يعتمد على الدراسة والتأمل . وطهارة النفس فى رأيه لا تقصد عن طريق الجسم والأعمال البدنية فحسب ، بل عن طريق العقل والأعمال الفكرية أولاً وبالذات . هناك فضائل عملية جسمية ولكنها لا تذكر فى شىء بجانب الفضائل العقلية النظرية ، ولئن كانت

(١) I. Goldziher, Le dogme et la loi de l'Islam, tr, fr. Paris, 1902

(٢) L. Massignon, La passion d'al Hossayn ibn Mansour al Hallâj, Paris, 1922

(١) A. F. Mehren, Traités mystiques d'Avicenne, voir aussi, Le Museon, t. I, II, III et IV

(٢) Carra de Vaux, al Fârâbî, dans Encyc. de l'Islam, t. II, pp. 57-59

(٣) Madkour, La place d'al Fârâbî, p, 9

الأعمال الحسنة والخلال الحميدة بعض الخير ، فالخير كل الخير فى مسألة تتدارسها وحقيقة تكشفها ومعرفة تتهذب بها نفوسنا وتسمو عقولنا . وذلك أن العقل البشرى سالكا سبيل رقيه وتطوره يمر بمراحل متدرجة بعضها فوق بعض . فهو فى أول أمره عقل بالقوة ، فاذا ما أدرك قدراً كبيراً من المعلومات العامة والحقائق الكلية أصبح عقلاً بالفعل . وقد يتسع مدى نظره ، ويحيط بأغلب الكليات فيرقى إلى أسمى درجة يصل إليها الانسان وهى درجة العقل المستفاد أو درجة الفيض والالهام . وعلى فى هذا ما يبين كيف اتصل التصوف عند الفارابى بعلم النفس ، ونظرية المعرفة

ولن يقف الأمر عند هذا الحد ، بل التصوف الفارابى متين الصلة بالنظريات الفلكية والميتافيزيقية ، فان الفارابى يتخيل نظاما فلكياً أساسه أن فى كل سماء قوة روحية أو عقلاً مفارقا يشرف على حركتها ومختلف شؤونها ، وآخر هذه القوى وهو العقل العاشر موكل بالسماء الدنيا والعالم الأرضى ، فهو نقطة اتصال بين العالمين العلوى والسفلى ، وكلما اتسعت معلومات المرء اقترب من العالم العلوى ودنت روحه من مستوى العقول المفارقة ، فاذا وصل إلى درجة العقل المستفاد أصبح أهلا لتقبل الأنوار الالهية وأضحى على اتصال مباشر بالعقل العاشر . فبالعلم والعلم وحده يمكننا أن نربط السماوى بالأرضى والالهى بالبشرى والملائكى بالانسانى ، وأن نصل إلى أعظم سعادة ممكنة . والمعرفة النظرية الميتافيزيقية هى أسمى غاية ينشدها العقل الانسانى . وإذا ما انتهينا إلى هذه المرتبة تحررت نفوسنا بتاتا من كل ما هو مادى وجسمى والتحقت بالكائنات العقلية واطمأنت إلى حالها هذه راجية أن تبقى فيها إلى النهاية

هذه هى السعادة التى تنحو نحوها الفلسفة والأخلاق ويصوب إليها النظر والعمل ويسعى إليها الانسان بدراسته وسلوكه ، هى الخير المطلق وغاية الغايات ومنتهى الرغبة الانسانية وجنة الواصلين ، يقول الفارابى : « والسعادة هى أن تصير نفس الانسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائما أبداً ، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال ، وإنما تبلغ ذلك بأفعال إرادية ، بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية ، وليست بأى أفعال اتفقت ، بل بأفعال محدودة مقدرة تحصل عن هيئات وملكات ما مقدرة محدودة . وذلك أن من الأفعال الارادية ما يعوق عن السعادة ، والسعادة هى الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلاً ولا فى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر ؛ وليس وراءها شىء آخر أعظم منها يمكن أن يناله الانسان . والأفعال الارادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة . والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى الفضائل ؛ وهذه ليست خيراً لذاتها ، بل لما تجلب من سعادة . والأفعال التى تعوق عن السعادة هى الشرور والأفعال القبيحة . والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى النقائص والرذائل والخسائس[1] »

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة فى كلية الآداب

(١) الفارابى ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ٤٧

ظهر حديثاً كتاب :

الثورة الوهابيـــة

تأليف الرئيس عبد الله على القصيمى النجدى

أروع الثورات . المثل الأعلى للبطولة العربية الاسلامية — بحث تحليلى للمذهب الوهابى . العقيدة السليمة — الملك بن سعود . نبوغ الصحراء — النجديون نموذج المؤمن الكامل — وثيقة دينية لأحد أمراء آل سعود . آراء الشيخ المراغى فى تجديد الاسلام ونقدها الخ . الخ ... ص ١٦٠ من القطع الكبيرة الثمن ٥ قروش

ويطلب من سائر المكاتب ، ويخاطب بيبع الجملة الشيخ عبد الحليم سلام المكتبى بالصادقية — بجوار الأزهر والمكتبة التجارية — بشارع محمد على بمصر